لخالد ينهاه عن ذلك سائلاً إياه: "ألم أنهك عن القتال"؟ وأجاب خالد بالإيجاب، ولكن عذره أن هؤلاء الناس هاجموه أولاً وبدأوا برمي السهام، وأنه لم يفعل بهم شيئًا في البدء وبيَّن لهم أنه لا يريد قتالاً، ولكنهم لم ينصتوا ولم يتوقفوا عن الرماية، فاضطر للرد عليهم وتفريقهم. كانت هذه هي الواقعة الوحيدة المؤسفة في تلك المناسبة، ولكن من الناحية العملية وبوجه عام، يمكن اعتبار أن فتح مكة قد تم سلميًا دون إراقة دماء.

ودخل الرسول ﷺ مكة. وسألوه أين سيقيم، فسألهم عما إذا كان عقيل قد ترك دارًا أو منْزلاً في مكة. كان عقيل ابن عم الرسول ﷺ، وأثناء فترة غيابه بعد هجرته إلى المدينة، باع أقرباؤه كل بيوته، فلم يكن قد بقي مكان يمكن أن يعتبره بيتًا له. لذلك قال لهم أنه سينْزل في خيف بني كنانة، وكان مكانًا مفتوحًا، حيث تعاهدت قريش وكنانة وأقسموا أنه ما لم يسلّم بنو هاشم وبنو عبد المطلب رسول الله إليهم يفعلون به ما شاءوا، فإنهم لن يتعاملوا مع القبيلتين، لا بيع ولا شراء معهم، فلجأ رسول الله وعائلته وأتباعه إلى شعب أبي طالب وعانوا مقاطعة مريرة استمرت مع حصار طال حتى بلغ السنوات الثلاث.

وهكذا كان المكان الذي اختاره الرسول ﷺ لإقامته ذا مغزى معيّن. لقد اجتمع أهل مكة هناك يومًا، وأقسموا أنه لن يقوم سلام مع عشيرته ما لم يقوموا بتسليمه إليهم. وها قد جاء الرسول ﷺ إلى نفس ذلك المكان، وكأنه قد جاء ليقول لهم: لقد كنتم تطلبونني، فها أنا ذا، ولكن ليس كما كنتم تريدون. لقد كنتم تريدونني سجينًا، مهينًا،

ضعيفًا رهن رحمتكم. ولكن ها أنا ذا وقد منحني الله القوّة والمَنعة، فليست عشيرتي وحدها هي التي تقف معي، بل إن أهل الجزيرة العربية كلها يقفون إلى جواري. لقد كنتم تريدون من عشيرتي أن تُسلّمني إليكم، ولكنهم بدلاً من ذلك قد سلُموكم أنتم إلىّ.

كان يوم الفتح هذا هو يوم الاثنين، وهو نفس اليوم أيضًا الذي غادر فيه الرسول ﷺ وأبو بكر غار ثور في طريقهما إلى المدينة. في ذلك اليوم، ألقى ﷺ بنظرة على مكة وقال: "يا مكة، والله إنك لأحب بلاد الله إلى الله، وأحب بلاد الله إليّ، ولولا أن قومي أخرجوني منك ما خرجت".

وحينما دخل الرسول ﷺ مكة، كان يمتطي ناقته، ويمشي بجواره أبو بكر وهو يتوكأ على عصا، بينما كان يتلو بعض الآيات الكريمة من سورة الفتح التي أنبأت بفتح مكة منذ سنوات مضت.

الكعبة تتطهر من الأصنام

توجّه الرسول ﷺ مباشرة إلى الكعبة المشرّفة وهو لا يزال على ناقته، فطاف سبع مرات حول البيت الذي بناه إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام من أجل عبادة الله الواحد الأحد، والذي بسبب ضلال ذريتهما قد تحوّل ذلك البيت ليكون مستودعًا للأصنام. وضرب الرسول ﷺ بعصاه الأصنام، الواحد تلو الآخر من تلك الأصنام التي بلغ عددها ثلاثمائة وستين صنما، وكلما سقط أحدها أو تحطم، كان ﷺ يتلو قوله تعالى: ﴿جَآءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ

زَهُوقًا﴾، وكانت هذه الآية الكريمة قد نزلت قبل أن يغادر الرسول ﷺ مكة إلى المدينة، وهي في سورة الإسراء التي جاء فيها ذكر خروج الرسول ﷺ من مكة ودخوله إليها مرة أخرى. وسورة الإسراء سورة مكّية، وقد اعترف بذلك الكُتّاب الغربيون أنفسهم. وكانت الآيات التي تذكر نبأ خروج الرسول ﷺ ودخوله، ومن ثم دخوله منتصرًا كما يلي:

﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا ۞ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ (الإسراء: ٨١، ٨٢)

لقد جاء ذكر فتح مكة هنا بصيغة دعاء أُمر الرسول ﷺ أن يدعو به، فقد أُمر أن يدعو لدخول مكة وللخروج منها، وأن يجعل له الله تعالى سلطانًا نصيرًا من لدنه على ذلك. ثم يتبع الدعاء تأكيد يقيني من لدن الله تعالى بصيغة الماضي، كأن الحدث قد تم بالفعل، أن الحق سوف يعلو وأن الباطل سوف يزهق. وقد تحققت النبوءة حرفيًا، وكان من المناسب أن يتلو أبو بكر رضي الله عنه آيات الكتاب الحكيم التي كانت تهز مشاعر المسلمين وتثير فرحهم بتحقق وعد الله تعالى، وفي نفس الوقت تُذكّر أهل مكة بعدم جدوَى مقاومة أمر الله ﷻ، وبصدق الوعود التي وعد الله بها رسوله.

وبفتح مكة، عادت الكعبة لتقوم بالدور الذي بُنيَت من أجله منذ ألوف السنين من قبل إبراهيم عليه السلام. لقد عادت الكعبة المشرفة لتكون المكان المخصص لعبادة الله الواحد الذي لا شريك له. وتحطمت

الأصنام، وكان أحدها هو الصنم الأكبر الذي كانوا يسمونه "هُبَل". ولما سدّد الرسول ﷺ إليه ضربة قوية بعصاه أوقعته فتناثر حطامه، ارتسمت على شفتي الزبير بن العوّام ابتسامةً نظر على إثرها إلى أبي سفيان، وراح يذكّره بما حدث في معركة أُحُد، فقال: "هل تذكر ذلك اليوم الذي وقف فيه المسلمون مكلومين مُنهكين بجوار الجبل، ثم زدت أنت من آلامهم حين هتفت: أعل هبل، أعل هبل؛ فهل كان هبل الذي أعطاكم النصر في ذلك اليوم؟ لو كان ذلك فانظر إلى ما آل إليه هبل".

وتأثر أبو سفيان كثيرًا، واعترف بأنه لو كان هناك حقًّا ربٌّ غير ربّ محمد، لما آل أمرهم إلى الهزيمة والهوان التي أُصيبوا بها في ذلك اليوم.

وأمر الرسول ﷺ بإزالة الصوَر التي كانت تشوّه جدران الكعبة، وفور إصداره للأمر صلى ركعتين شكرًا لله، ثم انسحب إلى خارج الكعبة في الحرم المفتوح وصلى ركعتين أخريين. وكان ﷺ قد وكّل إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه أمر إزالة الصور، فأزالها كلها وطمسها إلا صورة إبراهيم، وعندما عاد الرسول ﷺ ليتأكد من الإزالة وجد هذه الصورة سليمة فسأل عمر لم لم يزلها؟ ألم يذكر شهادة القرآن أن إبراهيم لم يكن يهوديًا ولا نصرانيًا ولكنه كان حنيفًا مسلمًا؟ (آل عمران: ٦٨). لقد كانت إهانة لذكرى إبراهيم عليه السلام، الذي كان رمزًا وعمادًا لدين التوحيد، أن تكون له هذه الصورة على جدران

الكعبة، فقد كان وجود الصورة يوحي كما لو أن إبراهيم يمكن أن يُعبد مثل الله تعالى. فأمره الرسول ﷺ بإزالتها أيضا.

لقد كان يومًا مشهودًا، يوم فيه احتشدت آيات الله البيّنات، وها هي وعود الله التي بدت مستحيلة التحقيق يوم تلقاها الرسول ﷺ قد تحققت في النهاية. لقد كان الرسول ﷺ في ذلك اليوم مرْكزًا للحب والإيمان، فقد تجلّى الله ﷻ من خلال شخص الرسول وأظهر وجهه الكريم كما فعل من قبل. وقد حدث أن أرسل الرسول ﷺ يطلب بعضًا من ماء زمزم، فشرب بعضه وتوضأ بالبقية. وكان المسلمون لشدة حبهم لشخص رسولهم الأكرم لا يسمحون لقطرة ماء أن تسقط من وضوء الرسول ﷺ إلى الأرض، فكانوا يتلقون الماء المتساقط في كفوف أيديهم ثم يبللوا به أجسامهم. وبهذه الطريقة من التوقير والاحترام كانوا يمنعون الماء من التساقط على الأرض. راح المشركون الذين رأوا ذلك المشهد يؤكدّون ويكرّرون في دهشة وعجب، أنهم لم يروا ملكًا من ملوك الأرض يحبّه شعبه كل هذا الحب (السيرة الحلبية ج٣ ص٩٩).

الرسول ﷺ يعفو عن أعدائه

بعد أن تمت كل الشعائر، توجّه الرسول ﷺ بالخطاب لأهل مكة قائلاً: "يا معشر قريش، ماذا ترون أني فاعل بكم"؟ لقد رأوا أن وعود الله تعالى التي كان يسردها على مسامعهم قد تحققت، وجاءت ساعة الحساب، لينالوا العقاب الذي يستحقونه على التعذيب والمظالم

والبشاعات التي ارتكبوها ضد أناس لا ذنب لهم سوَى أنهم دعوهم إلى عبادة الله وحده وألا يشركوا به شيئًا.

وكان ردهم عليه أنهم توقعوا منه معاملة كريمة، كما عامل يوسف إخوته الخاطئين، فقالوا: "خيرًا؛ أخ كريم وابن أخ كريم". وكان رده عليهم: "إني أقول لكم كما قال يوسف لإخوته: لا تثريب عليكم اليوم. اذهبوا فأنتم الطلقاء". (ابن هشام)

لقد كانت مصادفة ذات معنى عميق أن يستعمل أهل مكة في طلبهم الصفح نفس الكلمات التي استخدمها الله تعالى في سورة يوسف، والتي نزلت إلى الرسول ﷺ قبل فتح مكة بعشر سنوات. وهنا يطلبون من الرسول ﷺ أن يعامل القساة الغلاظ الظالمين من أهل مكة كما عامل يوسف عليه السلام إخوته. وبسؤالهم أن يجزيهم كما جازى يوسف إخوته، اعترف أهل مكة أن النبي ﷺ كان مثيلاً ليوسف، وكما نصر الله تعالى يوسف على أخوته، فكذلك نصر الله تعالى رسوله على مكة.

وبينما كان الرسول ﷺ يعبر عن شكره لله ﷻ بتأديته شعائره سبحانه في بيته المحرّم بامتنان وتواضع وإخلاص وإقبال، وبينما كان يخاطب أهل مكة معلنًا قراره بالعفو والغفران عنهم وتناسي ما حدث، كانت بعض الهواجس تعتمل في فكر عقول نفر من الأنصار، وأصابهم القلق من مشاهد عودة الرسول ﷺ والمهاجرين إلى بلدهم وأهليهم وبيوتهم، وما تم من تصالح وتواصل ومحبة ونسيان لكل ما حدث، فراحوا يسائلون أنفسهم في قلق: هل كان الرسول ﷺ بسبيله لينفصل

عن صحبتهم، وهم أصحابه ورفاقه في المحنة الذين أعطوا الإسلام مأواه الأول؟

هل كان الرسول ﷺ في طريقه ليستقر في مكة، وهي المدينة التي اضطرته لأن يفرّ منها ناجيًا بحياته؟ ولقد بدت لهم هذه المخاوف معقولة قريبة التحقيق، بما أن مكة قد فُتحت وأسلم أهلها، فلعل الرسول ﷺ قد مال إلى البقاء فيها.

وقد أخبر الله ﷻ نبيّه بكل هذه الهواجس التي راودت الأنصار، فرفع الرسول ﷺ رأسه ونظر إلى الأنصار، وقال لهم إنهم يظنون أنه قد غلبه الحنين إلى بلده الذي يحبه وقومه الأقربين. فلما أجاب الأنصار بالإيجاب، رد عليهم مطمئنًا إياهم، وأزال هواجسهم بأن قال لهم: إني عبد الله ورسوله، كيف لي أن أدعكم وقد نصرتموني وضحّيتم بحياتكم حين لم يكن أحد في الأرض يمدّ يد العون لدين الله. فكيف أتركم وأعيش في مكان آخر. كلا! أيها الأنصار هذا مستحيل. لقد هاجرت من مكة لوجه الله تعالى ولا يمكن أن أرجع إليها. بل سوف أحيا معكم وأموت معكم.

تأثر الأنصار بهذا التعبير الفريد عن الحب والولاء، فتغيرت مشاعرهم، واعتذروا نادمين لما خالجهم من هواجس تجاه الله ورسوله، ففاضت الدموع وبكوا وسألوا العفو عنهم، وذكروا أن السبب في تلك الهواجس هو إحساسهم بفقدان السلام إذا ترك رسول الله بلدهم وذهب لأيّ مكان آخر. وأجابهم الرسول ﷺ بأنه يقدّر مخاوفهم

ومشاعرهم، وأن الله راض عنهم، ورسوله راض عنهم، لسلامة وبراءة مشاعرهم، وأنه يشكر لهم ولاءهم وإخلاصهم.

تُرى، ماذا كان شعور أهل مكة الذي انتابهم في تلك اللحظات؟ صحيح أنهم لم يذرفوا الدموع حبًّا، ولكن لابد أن قلوبهم قد امتلأت ندمًا وأسفًا وأسىً. ألم ينبذوا هم بأيديهم هذه الجوهرة الغالية التي كانت موجودة في مكة مدينتهم؟

لقد حق لهم جميعًا أن يأسفوا عظيم الأسف، لأن الرسول ﷺ الذي عاد إلى مكة، قرر أن يتركها ليعود ثانية إلى المدينة، ولقد كان ذلك سببًا هائلاً كافيًا للشعور بالأسف والأسَى.

عكرمة يدخل الإسلام

كان من بين أولئك الذين لم يشملهم العفو العام بعض الأشخاص الذين نالوا عفو الرسول ﷺ بعد أن تشفّع لهم بعض الصحابة الكرام، وكان من هؤلاء الذين نالوا العفو عكرمة بن أبي جهل. كانت زوجة عكرمة قد أسلمت بقلبها، وقد تشفّعت لدى الرسول ﷺ لكي يعفو عن زوجها، فعفا عنه. وفي أثناء ذلك، كان عكرمة قد هرب من مكة في طريقه لاجئًا إلى الحبشة. وخرجت زوجته تحاول اللحاق به، فأدركته قبل أن يركب البحر. فعنّفته وقالت له: "أهارب أنت من رجل ليّن كريم كرسول الله"؟

تعجّب عكرمة وسألها ما إذا كانت تظن أنه من الممكن حقًّا أن يعفو رسول الله عنه؟ وطمأنته زوجته أنه ﷺ سوف يعفو حتى عن

رجل مثل عكرمة، وأنه في حقيقة الأمر قد عفا عنه بالفعل. وتخلى عكرمة عن عزمه الهروب إلى الحبشة، وعاد ليرى الرسول ﷺ. وعندما قابله قال له إن زوجته أخبرته بأن رسول الله يمكن أن يعفو حتى عن رجل مثله. فأخبره الرسول ﷺ بأن زوجته على حق، وأنه قد عفا عنه فعلاً.

وأدرك عكرمة أن إنسانًا يمكن أن يغفر لأشد أعدائه ضراوَة، لا يمكن أن يكون كذّابًا ولا مدّعيًا. ولذلك فقد أعلن على الفور قبوله الإسلام وهتف لسانه يعبر عما في وجدانه فقال: "أشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنك عبده ورسوله". وبعد أن قال ذلك غمره إحساس عميق بالندم والخجل لكل ما ارتكبه فأطرق برأسه وهو في حضرة رسول الله، حتى إن الرسول ﷺ راح يخفّف عنه، فقال له إنه لم يغفر له فحسب، بل إنه يريد أن يعبر له أيضًا عن تقديره له، وإنه لذلك يدعوه لكي يطلب منه ما يشاء من أمنية مما هو في وسعه أن يحققه له.

وأجاب عكرمة أنه ليس أحب إليه من أن يطلب من رسول الله أن يدعو الله له كي يغفر له ما اقترفت يداه من أعمال شائنة ضد الإسلام، وما ارتكبه من جرائم منكرة في حق رسول الله.

حينئذ دعا الرسول الله تعالى أن يغفر عداوة عكرمة له، وأن يعفو عن كل السباب والإهانات التي تلفّظت بها شفتاه.

ونهض الرسول ﷺ ووضع عباءته على عكرمة، وقال إن من يأتي إليه مؤمنًا بالله فهو منه، ويعتبر بيته بيتًا له.

لقد حققت المحادثة بين رسول الله وعكرمة رؤيا كان قد ذكرها لأصحابه قبل عدة سنوات، إذ كان قد قال لهم إنه رأى رؤيا رأى نفسه فيها في الجنة ورأى عنقودًا من العنب، فلما سأل لمن هذا العنب قيل له إنه لأبي جهل. وقد أشار الرسول ﷺ إلى هذه الرؤيا أثناء حديثه مع عكرمة، وقال إنه لم يفهم هذه الرؤيا في أول الأمر، إذ لم يفهم كيف يمكن لأبي جهل، وهو عدوّ المسلمين، أن يدخل الجنة، وكيف يمكن أن يقدّم له عنقود من العنب. ولكنه فهم الآن معنى تلك الرؤيا؛ إذ أن عنقود العنب كان لعكرمة، ولكنه شاهد الأب في الرؤيا بدلاً من الابن، وهو أمر يحدث عادة في الرؤَى والأحلام. (السيرة الحلبية ج٣، ص١٠٤)

كان من بين الحفنة من الأفراد الذين لم يشملهم العفو العام رجل كان قد تسبّب في مقتل زينب ابنة الرسول ﷺ، وكان اسمه حبّار، وكان قد قطع حزام سرج الجمل الذي كانت تركبه زينب، مما أدى إلى سقوطها إلى الأرض. ولما كانت حاملاً في ذلك الوقت، فقد أدى وقوعها من على الجمل إلى سقوط الجنين، ثم ماتت بعد ذلك بفترة قصيرة. وكانت هذه إحدى الجرائم التي ارتكبها حبّار والتي استحق بسببها العقاب. وقد جاء هذا الرجل إلى الرسول ﷺ وقال: "يا رسول الله.. لقد فررت منك وذهبت إلى فارس، ولكني فكرت في نفسي أن الله خلّصنا من الشرك وأنقذنا من الضلال، فلماذا لا أذهب إلى الرسول نفسه وأطلب منه العفو معترفًا بذنبي بدلاً من طلب اللجوء إلى الآخرين".

وتأثر الرسول ﷺ بما قاله حبّار، وعبر لـــه عن عفوه إزاء كل مـــا فعل من قبل، ما دام الله تعالى قد غرس في قلبه حب الإسلام.

إن المرء لا يمكنه أن يصف الجرائم البشعة التي ارتكبها هؤلاء الناس ضد الإسلام والمسلمين، ومع ذلك، فقد عفـــا عنـــهم الرســـول ﷺ ببساطة ويسر. وقد حوّلت روح العفو هذه أشـــد النـــاس عـــداوة وأكثرهم قسوة إلى أولياء مخلصين للرسول ﷺ، قدموا حياتهم للدفاع عن الدين.

معركة حُنين

كان دخول الرسول ﷺ مكة مفاجئًا. وظل الخبر فترة قبل أن تعيه القبائل المجاورة لمكة وخاصة في الجنوب. وعند ما سمعوا بـــه بـــدأوا يجمعون قواتهم ويُعدّون أنفسهم لقتال المسلمين. وكانت قبيلتا هوازن وثقيف تفخران بشجاعتهما وبطولاتهما. فاجتمعت القبيلتان وتشاورتا معًا، وبعد بعض المداولات، اختار الطرفان أميرًا عليهم هو "مالك بن عوف". وعندئذ قاموا بدعوة القبائل المحيطة لتنضم إليهم، وكان منهم قبيلة بني سعد، التي تنتمي إليها مُرضع الرسول (حليمة) عندما كـــان طفلاً عاش ونشأ بينهم. وقد قام رجال هذه القبيلـــة بجمـــع قـــواتهم واتجهوا إلى مكة، مصطحبين معهم أفراد أسرهم وممتلكاتهم، ولما سُئلوا عن سبب ذلك أجابوا بأن الجنود إذا ذكروا أسرهم وأزواجهم ومـــا يملكون عند القتال أبوا أن يتراجعوا خوفًا على نسائهم مـــن الـــسبي وعلى مالهم من الغنيمة.

وهكذا كان إصرارهم على القتال والقضاء على المسلمين يبلغ هذا القدر من الشدة والتصميم. نزلت كل هذه القوات إلى وادي أوطاس، وكان أنسب مكان يمكن اتخاذه قاعدة للقتال، بسبب ملاجئه الطبيعية وتوافر العلف والماء، وسعة تصلح لمناورة الفرسان وتحركاتهم. وعندما علم الرسول ﷺ بذلك، أرسل صاحبه عبد الله بن أبي حدرد ليستطلع الأمر. وأبلغه عبد الله أن هناك حشدًا عسكريًا في هذا المكان وأن هناك تصميمًا يملكهم أن يقتلوا المسلمين أو يموتوا دون ذلك. وكانت هذه القبيلة معروفة بمهارتها في الرماية، وكانت القاعدة التي اختاروها أرضًا للمعركة توَفر لهم ميزة عظيمة في هذا الصدد. وتقدّم الرسول ﷺ إلى صفوان، أحد سادات مكة الأغنياء، وطلب منه بعض الأسلحة والدروع، فرد عليه صفوان قائلاً: "هل تظن أنك ترهبني بقوتك لأعطيك ما تريد"؟ فرد الرسول ﷺ بما يفيد أنه لا يريد الاستيلاء على شيء، بل سيقترض ويعطيه الضمان المناسب. فرضي صفوان ووافق على إقراضه المواد المطلوبة، وجملة ما زوّد به الرسول كان ١٠٠ حلة مدرّعة وعددًا مناسبًا من السيوف. واستعار الرسول ﷺ ثلاثة آلاف رمح من ابن عمه نوفل بن الحارث، واقترض ثلاثين ألف درهم من عبد الله بن ربيعة (الموطأ، المسند، السيرة الحلبية).

وعندما توجَّه الجيش المسلم نحو هوازن، أعرب أهل مكة عن رغبتهم في الانضمام إليه، ولم يكونوا قد أسلموا بعد لكنهم وافقوا على أن يعيشوا تحت نظام الإسلام. وهكذا انضم ألفان منهم للمسلمين. وفي الطريق أتوا على مزار عربي شهير يسمى "ذات

أنواط"، وهو شجرة عنب معمّرة يقدّسها العرب في هـذا المكـان، وعندما يشترون سلاحًا يذهبون به أولاً ويعلقونه في هذا المزار ليتلقى السلاح البركات. وعندما مر جيش الإسلام على هذا المكان صـاح بعض الجنود: "اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط". فاسـتنكر الرسول ﷺ ذلك وقال إنهم قالوا كما قال قوم موسى لـه لما جـاوز الله بهم البحر: اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة، مشيرًا إلى قولـه تعـالى في سورة الأعراف:

﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَـالَ إِنَّكُـمْ قَـوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ (الآية ١٣٩)

رسول الله يناديكم

لم يدّخر الرسول ﷺ وسعًا في حثّ المسلمين أن يذكروا عظمة الله تعالى، وأن يتضرّعوا إليه لينجيهم من خرافات الأمم السابقة، وقبل أن يصل جيش المسلمين إلى "حُنين" كانت "هوازن" وحلفاؤها قد أعدّوا عددًا من الكمائن لمباغتة المسلمين بالهجوم، كما هو الحال في مرابض المدفعية المموّهة والحفر المستورة في الحرب الحديثة. كانوا قـد بنـوا سواتر وحوائط مموّهة، وكمنوا خلف تلك الحوائط في الانتظار، بعـد أن تركوا ممرًا ضيقًا للمسلمين ليمروا منه.

كان الجزء الأكبر من جيش العدوّ قد ذهب إلى هـذه الكمـائن، بينما اصطف عدد محدود منهم أمام إبلهم. وظن المسلمون أن عـدد

الأعداء قد اقتصر على من رأوهم، لذلك تقدموا للهجوم. وبعد أن توغلوا في تقدمهم، وأيقن العدوّ الكامن أن الهجوم عليهم بات سهلاً، فعلى الفور اصطف الجنود أمام إبلهم وهاجموا قلب جيش المسلمين، بينما أمطر الرماة المختفون ميْمنته وميْسرته بالسهام. هذا الهجوم المزدوَج للعدوّ لم يتحمّله أهل مكة الذين انضمّوا لجيش الرسول طمعًا في فرصة لإظهار شجاعتهم، وفرّوا عائدين إلى مكة. كان المسلمون قد اعتادوا مواجهة الأوضاع المعقّدة الصعبة، ولكن عندما شق ألفان من الجنود طريقهم عبر الجيش المسلم وهم يمتطون خيلهم وإبلهم، سبّب ذلك ذعرًا في صدور الإبل والخيل لبقية الجيش. وتضاعف ذلك الذعر بشكل متصاعد عندما اشتدّ الضغط على الجيش من ثلاثة جوانب. وفي هذه الأثناء ثبت رسول الله واثنا عشر من أصحابه لا يتزحزحون. ولا يعني هذا أن كل الصحابة فرّوا من الميدان، فقد كان هناك مائة أو زهاؤها ممن لم يتراجعوا، لكنهم كانوا على مبعدة عن مكان الرسول ﷺ، ولكن الاثني عشر وحدهم كانوا يحيطون بالرسول ﷺ. وروَى أحد الصحابة أنه وأصدقاءه فعلوا كل ما استطاعوا لكي يلووا أعناق المطايا نحو ميدان المعركة، ولكن الرعب كان قد ملك المطايا، ولم يبد أن هناك نفعًا من أيّ جهد مبذول. لقد شدّوا الأعنّة لكن الخيل والإبل لم تطع، ولم تكن تتوجّه إلى جهة المعركة مهما همز وكرر عليها المهماز، بل كانت تتراجع أكثر وتشتد في الإباء. وروَى ذلك الصحابي أن قلبه كان يدق خوفًا أن يكون الرسول ﷺ قد أصابه

مكروه، لكنه لم يكن يستطيع شيئًا. وكانت هذه هي الحال التي وجد كل الصحابة أنفسهم فيها.

لقد ثبت الرسول ﷺ نفسه في قلة من أصحابه، يتعرض لوابل السهام من ثلاثة جوانب، وكان خلفهم ممر ضيق للعبور لا يستطيع سوَى قلة أن يعبروا فيه معًا، وترجّل أبو بكر عن دابّته وأمسك بعنان بغلة الرسول وقال: "يا رسول الله، فلننسحب برهة ريثما يستجمع الجيش نفسه"، فأمره الرسول ﷺ أن يدع عنان البغلة، ثم ركضها في الممر الضيق نحو الأعداء والسهام تتطاير من الجانبين وهو يقول هاتفًا: "أنا النبيّ لا كذب، أنا ابن عبد المطلب" (البخاري).

هذه الكلمات التي قيلت في ذلك الوقت، وقالها الرسول ﷺ وهو يتعرّض للخطر في أقصى صوره وأقسى أشكاله، كان لها ثقلها ومغزاها، وهي تؤكد الحقيقة الصارخة أن الرسول ﷺ كان نبيًّا حقًّا، وليس في الأمر سحرٌ ولا حيلة. وهو بهذا التوكيد كان يعني ويقصد أنه لا يهاب الموت ولا يخشَى حتى انهيار دعوته واندثارها، فإن ظل سالمًا رغم كل هذه السهام التي تتطاير من حوله، فلا يجب بسبب ذلك أن ينسب إليه المسلمون أية صفة تأليهية، لأنه لم يكن أكثر من إنسان، فهو ابن عبد المطلب. لقد كان الرسول ﷺ حريصًا حرصًا مطلقًا على أن يميز لأصحابه بين الإيمان والخرافة، وأن يُرسّخ ذلك التمييز في أعماقهم، حتى ولو كان ذلك في أحلك الأوقات.

وبعد أن نطق بهذه الكلمات الخالدة، نادى على عمه العباس، وكان جهْوَريّ الصوت، وقال له: "يا عباس، ناد في الناس". وأمره أن ينادي المسلمين قائلاً: "إن رسول الله يناديكم".

ورفع العباس صوته الجهوَري، ووقع صوته الذي يحمل نداء الرسول ﷺ وقوع الرعد على السامعين، لم يقع النداء على آذان صمّاء بل على آذان ملهوفة، فأحدث فيهم أثرًا كما لو أن الكهرباء قد مستهم.

ونفس الصحابة الذين كانوا قد فقدوا كل حيلة إزاء حث مطاياهم نحو الميدان، بدأوا يشعرون أنهم ليسوا في هذا العالم، بل وكأنهم في العالم الآخر، في مواجهة الله ﷻ يوم الدين. ولم يعد صوت العباس يبدو لهم أنه صوت العباس نفسه، بل وكأنه صوت أحد ملائكة الله يطالبهم أن يقدموا كشف حساب عن أعمالهم. وحينئذ، لم يكن من شيء يمكن أن يمنعهم من العودة إلى ميدان المعركة مرة أخرى. لقد ترجّل الكثير منهم عن راحلته، مكتفيًا بالدرع والسيف مسرعًا إلى أرض المعركة، لا يبالي أين ذهبت مطيته. وبعضهم ترجّل وضرب عنق الحيوان، وأسرع مترجّلاً إلى الرسول ﷺ. وقيل إن الأنصار أسرعوا وعطفوا إليه بسرعة الناقة الأم نحو وليدها إذا استغاث صارخًا. ولم يمض وقت طويل حتى اجتمع إلى الرسول ﷺ عدد من المسلمين، راح يتزايد حتى أحاط بالرسول ﷺ جمع من أصحابه. وبدأ القتال، ومرة أخرى تجرّع العدو مرارة الهزيمة وعانى الانكسار.

كان هناك مغزى عظيم لوجود أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب بجانب الرسول ﷺ في هذا اليوم، فكان في ذلك إشارة إلهية وآية ربانية، آية على عظمة قدرة الله من جهة، ومن جهة أخرى كانت دليلاً على التأثير البالغ للرسول ﷺ في تزكية النفوس. فمنذ أيام قليلة كان أبو سفيان عدوًا لدودًا، يتعطش لدم الرسول ﷺ. ولكن ها هو الآن، كان نفس الشخص يقف بجانب الرسول ﷺ صديقًا وتابعًا وصاحبًا له. وعندما فرّت إبل العدو مذعورة مشتتة، ترجّل أبو سفيان عن جواده، وأمسك بسرْج بغلة الرسول ﷺ، وبدأ يتحرك على قدميه والسيف في يده والأخرى ممسكة بالركاب، يمشى بجانب الرسول ﷺ عازمًا ألا يدع أحدًا يقترب من شخص الرسول دون أن يدفعه ويقتله. ورأى الرسول ﷺ هذا التغيير في أبي سفيان وهو سعيد مندهش، وراح يتأمل بعمق هذا الدليل الجديد على عظمة قدرة الله ﷻ. فقد كان هذا الرجل عدوًّا للإسلام منذ أيام قلائل، ولكن التغير قد حدث، فها هنا هو يقف الآن بجانب الرسول ﷺ كأي جندي مشاة عادي، يمسك بركاب بغلة سيده، ويملؤه العزم والتصميم على أن يموت فداءً له. ورأى العباس ملامح الدهشة السعيدة في نظرة الرسول ﷺ إلى أبي سفيان فقال: "يا رسول الله؛ هذا أبو سفيان ابن عمك، وهو أخوك أيضًا. ألست سعيدًا به"؟ وأكد الرسول ﷺ على قوله، ودعا بالمغفرة لأبي سفيان على كل ما فعله، ثم التفت إليه وناداه قائلاً: "يا أخي"، عندها لم يملك أبو سفيان أن يتغلب على العواطف الجياشة التي

ملأت قلبه وفاضت في وجدانه، فانحنى ليقبّل قدم الرسول ﷺ في الركاب الذي يمسك به* (السيرة الحلبية).

وبعد معركة حُنين، أعاد الرسول ﷺ عُدّة الحرب التي كان قد اقترضها، وجعل للمقرضين منحة سخية تعادل أضعاف قيمة ما استعار منهم. وقد تأثر كثيرًا أولئك الذين أقرضوه العدة والسلاح، فقد مسّ شغاف قلوبهم هذا الاحترام الذي أبداه الرسول ﷺ عند إعادة ما اقترض، ولسخائه الكريم عند رد القرض، وأدركوا أن هذا الرجل ليس إنسانًا عاديًا، بل رجل يعتلي قمة خُلقية عالية، تجعل منه قدوة حسنة تفوق كل الآخرين. ولا عجب أن اعتنق صفوان الإسلام على الفور.

العدو الحقود يتحوّل إلى تابع مخلص

دائمًا ما تُذكّر موقعة حُنين المؤرخين بحادثة مهمة أخرى جرت أثناء تطور الأحداث. كان "شيْبة" من سكان مكة، وكان يعمل في خدمة الكعبة، واشترك في المعركة ضمن صفوف العدوّ. وكان يقول إن أمله الوحيد في هذه الموقعة عندما يلتقي الجيشان، أن يجد فرصة لقتل الرسول ﷺ. كان في قلبه تصميم جازم أن لو اتبع العالم كله هذا الرسول، ناهيك عن كل العرب، فسيظل هو يعارضه ويعارض الإسلام. وعندما حمي وطيس المعركة استل شيْبة سيفه وتقدم من

* نذكّر القارئ بأن هذا الحادث لم يقع مع أبي سفيان بن حرب ﷺ بل حصل مع أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ﷺ. (المترجم)

الرسول ﷺ، وعندما صار قريبًا منه فوجئ برباطة جأشه تتبخر وشجاعته تتلاشَى، وبدأ عزمه يهتز وتصميمه يضطرب. ويحكي شيْبة أنه في هذه اللحظات رأى لهبًا يوشك أن يلتهمه، وسمع صوت الرسول ﷺ يقول له: "شيْبة.. اقترب مني". وعندما اقترب منه وضع الرسول ﷺ يده على صدر شيبة ومسح عليه في حنان ومحبة، وراح يدعو الله تعالى أن يطهّر صدر شيْبة من كل خاطر شيطاني. وحدث الانقلاب؛ وبهذه اللمسة الحنونة الصغيرة تلاشَى كلّ خاطر شيطاني من فكره، وتغيرت معها الكراهية وتبخرت العداوة، ومنذ تلك اللحظة شعر شيْبة أن رسول الله ﷺ أحبّ لديه من كل شيء آخر في هذا العالم. وبعد هذا التحوّل الذي طرأ على شيبة، دعاه الرسول ﷺ أن يتقدم ويقاتل في سبيل الله. ويقول شيْبة: "في تلك اللحظة، كان كل ما يدور في خلدي من فكر هو أن أموت فداء للرسول ﷺ، حتى ولو كان أبي هو الذي يعترض طريقي، فلن أتردد لحظة أن أغمد سيفي في صدره". (السيرة الحلبية)

وتحرك الرسول ﷺ إلى الطائف، المدينة التي رجمته بالحجارة وطردته منها، وحاصرها ولكنه عدل عن ذلك نزولاً على مشورة بعض صحابته، وبعد مدة اعتنقت هذه المدينة الإسلام طائعة.

الرسول ﷺ يوزّع الغنائم

بعد فتح مكة والنصر في حُنين، كان على الرسول ﷺ أن يقوم بتوزيع المال والثروة التي تراكمت من الغنائم والأموال المدفوعة فدية

للأسرى. ولو تم الأمر على ما جرت العادة عليه، لتم توزيع الغنائم على الجنود المسلمين الذين اشتركوا في المعركة. ولكن في هذه المرة، وزّع الرسول ﷺ الغنائم على أهل مكة والمحيطين بها بدلاً من الجند المسلم المشترك في القتال.

كان بعض هؤلاء القوم مسلمين ولما يدخل الإيمان في قلوبهم، وكان كثير منهم منكرين مجاهرين بالإنكار للرسول ﷺ، والذين أعلنوا إسلامهم كانوا حديثي عهد به، و لم يمارسوا بعد مبدأ إنكار الذات، ولا يعرفون كيف يكون الشخص بعد إسلامه مضحيًّا منكرًا لذاته. وبدلاً من اقتدائهم بالمثل الذي ضربه صحابة الرسول ﷺ أمامهم في نكران الذات والتضحية بها، وبدلاً من رد جميل المعاملة الطيبة التي لقوها من المسلمين؛ فإنهم على العكس أصبحوا أكثر طمعًا وجشعًا من أيّ وقت مضى، وظلت مطالبهم من الرسول ﷺ تتكاثر. وشاع بينهم أن محمدًا يعطي عطاء من لا يخشى الفقر، فازدحمت عليه الأعراب يطلبون المال حتى اضطروه إلى شجرة فانتزعوا رداءه فقال: "أَعْطُونِي رِدَائِي فَلَوْ كَانَ عَدَدُ هَذِه الْعِضَاه نَعَمًا لَقَسَمْتُهُ بَيْنَكُمْ ثُمَّ لا تَجِدُونِي بَخِيلاً وَلا كَذُوبًا وَلا جَبَانًا" (البخاري-كتاب فرض الخمس).

ثم قام إلى جنب بعيره فأخذ من سنامه وبَرَة، فجعلها بين إصبعيه ثم رفعها فقال: "أيها الناس والله ما لي من فيئكم ولا هذه الوبرة إلا الخمس، والخمس مردود عليكم". لقد ادّعى النقاد الحاقدون أن الرسول تاقت نفسه أن يصبح ملكًا، وأن تكون له مملكة. ولكن فلنتصوّر أنه قد صار ملكًا وأنه كان محاطًا بشرذمة من الدهماء، فلو أن

غايته كانت فعلاً أن يكون ملكًا وطمع أن تكون لـه مملكة، فهـل كان يرضَى أن تعامله مجموعة من المتسولين بهذا الشكل، وأن يكـون كريمًا في معاملته لهم كما كان هو؟ هـل يـضطر الملـك للـشرح والإيضاح وتقديم الأدلة والبيّنات؟ إن الأنبياء فقط ورسل الله تعالى هم الذين يقدّمون هذا المثل الكريم من السلوك المثالي.

إن كل الغنائم والأموال والمواد القيّمة التي كانت في طريقهـا إلى التوزيع قد تم توزيعها بين المستحقين والفقراء، ورغم ذلك بقيَ هؤلاء الذين لا يشبعون، وراح البعض من الذين احتشدوا حول الرسول ﷺ يحتجّون على التوزيع، ويتهمونه بعدم العدالة.

ومنهم كان ذو الخويصرة، الذي اقترب من الرسـول ﷺ قـائلاً: "هذه قسمة ما عدل فيها، هذه قسمة ما أريد بها وجه الله" فردّ عليـه الرسول ﷺ قائلاً: "ويلك! فمن يعدل إن لم أعدل؟" (مـسلم-كتـاب الزكاة)

كان المؤمنون الصادقون في ثورة وغضب لما سمعوه، وقال بعضهم بعد انصراف ذي الخويصرة: "إنه يستحق الموت، مُرنا فلنقتلـه يـا رسول الله". فرد الرسول ﷺ بالرفض قائلاً ما معنـاه: "إذا اسـتقبل قبلتنا و لم يفعل ما يوجب قتله فكيف نقتله؟" فقالوا إنه يبطن غير مـا يظهر. فرد الرسول ﷺ قائلاً: "إني لم أؤمر أن أشق عن صدور الناس".

واستمر الرسول ﷺ يحدّث المؤمنين أن مثل هذا الرجل ومن يخرج على نهجه سيخرقون في الإسلام خرقًا واسعًا. وقد تحقّق ما قاله ﷺ. ففي زمن عليّ كرم الله وجهه؛ الخليفة الراشد الرابع للإسـلام، قـام

أمثال ذلك الرجل بتمرّد ضد الخليفة، وأحدثوا في الإسلام حدثًا، وصاروا قادة لطائفة مارقة مدانة من عموم المسلمين، وهم الخوارج.

بعد التعامل مع قبيلة هوازن، عاد الرسول ﷺ إلى المدينة. وكان يومًا عظيمًا آخر لأهلها. كان وصول الرسول ﷺ مهاجرًا لاجئًا من سوء معاملة مكة هو أحد أيامهم العظيمة، ولكن في هذا اليوم العظيم الآخر، كان الرسول ﷺ يدخل المدينة مليئًا بمشاعر الفرح، ويغمره تصميم واع ووعد مبذول أن يتخذ المدينة وطنًا له.

مكيدة أبي عامر الراهب

لقد حان الآن أن نلتفت إلى ما فعل رجل يسمى أبا عامر، وهو ينتمي إلى قبيلة الخزرج. وقد اكتسب عادة التفكر الصامت وكثرة ترديد أسماء الله من طول معايشته لليهود والنصارى. وبسبب هذه العادة اشتهر باسم أبي عامر الراهب، رغم أنه لم يكن مؤمنًا بالمسيحية. وعندما هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة، فرَّ أبو عامر من المدينة وذهب إلى مكة. وعندما خضعت مكة للتأثير المتنامي للإسلام، بدأ أبو عامر يخطط لمؤامرة جديدة ضد الإسلام. فغير اسمه وعاداته التقليدية في الملبس واستقر في قباء، وهي قرية قرب المدينة. وبسبب غيابه الطويل عن المدينة، وتغيير اسمه ومظهره وملابسه، لم يتعرف عليه أهل المدينة، ولكن المنافقين عرفوه وأقاموا معه علاقة سرية، فاتخذهم رجالاً موضع ثقته. ووضع بالتعاون معهم خطة للذهاب إلى الشام لتحميس وإثارة الحكام المسيحيين والمسيحيين العرب ليقوموا بمهاجمة

المدينة المنوّرة. وبينما انخرط هو في مهمته الشريرة في الشمال فقد خطط لإشاعة الاستياء والرعب في المدينة. وقام فريق من المنافقين بنشر الإشاعات الكاذبة أن المدينة في طريقها للوقوع فريسة للهجوم القادم من الشام. وقد قصد أبو عامر من خطته هذه أن يوقع بين المسلمين وأهل الشام المسيحيين لتقع الحرب بينهما، أو أن يقوم المسلمون من جانبهم بالهجوم على الشام متأثرين بما سمعوه. وأيّا كان الحال فسوف تنشب حرب بين الطرفين، الأمر الذي يسعد أبا عامر كثيرًا. وهكذا ذهب أبو عامر إلى الشام ليتم مهمته بعد أن أثار القبائل العربية المسيحية، ولم يدّخر أولياؤه المنافقون وسعًا في بثّ الإشاعات عن أرتال القوافل المسلحة التي قالوا إنها شوهدت متّجهة إلى المدينة لمهاجمتها، وحين ترقّب الناس ولم تظهر هذه القوات، لم يعدموا أن يجدوا تبريرًا يقدمونه.

حملة تبوك

ظلت هذه الإشاعات تتردد حتى ظن الرسول ﷺ أن الأمر يستحق أن يقود بنفسه جيشًا إلى الشام. كان ذلك الوقت من أصعب الأوقات، فقد كانت المجاعة تضرب أنحاء الجزيرة بسبب الجفاف، وكان محصول العام السابق من الحبوب والفاكهة قليلاً، ولم يكن محصول العام الحالي قد آن حصاده بعد. كانت نهاية سبتمبر/أيلول أو بداية أكتوبر/تشرين الأول عندما توجّه الرسول ﷺ لتنفيذ مهمته. وكان المنافقون يرون أن الإشاعة التي راجت هي من بنات أفكارهم،

وأن خطتهم قد أثمرت في دفع المسلمين إلى الهجوم على الشام، إذا لم يهاجم أهلُ الشام المسلمين. وفي الحالتين فإن صراعًا ينشأ مع الإمبراطورية الرومانية العظيمة لن يؤدى إلا إلى القضاء على المسلمين. كان درس مُؤتة ماثلاً أمام عيونهم، ففي مؤتة اضطر المسلمون لمواجهة جيش ضخم لم ينجحوا حتى في الانسحاب من أمامه إلا بصعوبة بالغة. ووضع المنافقون آمالهم في خوض المسلمين غمار مؤتة ثانية، وربما فقد فيها الرسول ﷺ حياته. وبينما شغل المنافقون أنفسهم بنشر الإشاعات عن هجوم أهل الشام، لم يدّخروا وسعًا في بثّ الرعب في قلوب المسلمين وتسميم أفكارهم، قائلين إن بإمكان أهل الشام إعداد جيوش بالغة الضخامة لا قِبَل للمسلمين بها، وحثّوا المسلمين أن يمتنعوا عن الاشتراك في الحرب ضد الشام. كانت خطتهم هي أن يثيروا المسلمين ليخرجوا لحرب الشام من ناحية، ومن ناحية أخرى أن يخيفوا المسلمين حتى لا يخرجوا بأعداد كبيرة. لقد أرادوا أن يخرج المسلمون للقاء جيش الشام، ولكن وهم ضعفاء، وذلك ليمنوا بهزيمة محققة. غير أنه ما إن أعلن الرسول ﷺ عزمه على قيادة جيشه في حملته الجديدة حتى سرَى الحماس قويًا عاليًا في المسلمين، ومضوا قدمًا يعرضون التضحية بحياتهم في سبيل دينهم. ولم يكن تسليح المسلمين مناسبًا لحرب كتلك، وكانوا خلوا من المال الكافي، وقليل من الأغنياء من كانت لديه القدرة للتبرّع من أجل الحرب، وتنافس أفراد المسلمين في إظهار روح التضحية فداء لإيمانهم. ورُوي أن الرسول ﷺ ناشد المسلمين تمويل الغزوة، فتنازل عثمان عن الجزء الأعظم من ثروته.

وكانت مساهمته تقدر بألف دينار من الذهب، وساهم المسلمون الآخرون حسب استطاعتهم، وتم تزويد الجنود الفقراء بمطايا وسيوف ورماح لتسليحهم. وسرَى الحماس عاليًا. وجاء إلى الرسول ﷺ رجال من الأشعريين الذين هاجروا إلى المدينة من اليمن، وكانوا فقراء، فعرضوا الخدمة في صفوف الحملة وقالوا: "يا رسول الله خذنا معك، ولا نبتغي شيئًا إلا الوسيلة التي تحملنا". وقصّ القرآن قصّتهم وما عرضوه على الرسول ﷺ في قوله تعالى:

﴿وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾ (التوبة: ٩٢)

والمعنى أنه لا لوم على الذين لم يخرجوا للقتال بسبب فقرهم إلى وسيلة الانتقال، وذهبوا إلى الرسول ﷺ ليزوّدهم بها فلم يستطع لأنه لم يكن يملكها، فعادوا آسفين لذلك باكين تفيض أعينهم بالدمع لعدم قدرتهم على المساهمة مع المسلمين في المعركة.

كان أبو موسى زعيمًا لهذه المجموعة، وعندما سُئل عما طلبوه من الرسول ﷺ قال: "لم نكن نطلب إبلاً ولا خيْلاً، بل طلبنا أحذية ونعالاً، فلم نكن نستطيع قطع الرحلة الطويلة حفاة الأقدام، ولو كنا نملك النعال وحدها لخرجنا مشاة وساهمنا في الحرب مع إخواننا المسلمين".

وعندما سلك الجيش طريقه نحو الشام، لم يكن المسلمون قد نسوا ما حدث وما عانوه في مؤتة، وكان القلق على سلامة الرسول ﷺ يملأ قلب كل مسلم. وقامت نساء المدينة بدورهن المنوط بهن، فحثّوا

رجالهن والأبناء لينخرطوا في المعركة وشغلن بهذا التحريض. وحدث أن عاد أحد الصحابة إلى المدينة من سفره بعد أن كان الرسول ﷺ قد غادرها مع جيشه، ودخل الرجل إلى بيته يتوقع أن تلقاه زوجه بالتحية والود والعواطف التي تلقَى بها الزوجة زوجها عادة بعد غياب طويل. وشاهد زوجته في الفناء فتحرك ليعانقها ويقبلها، ولكنها رفعت يديها ودفعته عنها، ونظر الزوج المشدوه إلى زوجه وقال: "أهذه هي المعاملة التي يجب أن تلقى بها امرأة زوجها بعد غياب طويل"؟ فقالت الزوجة: "ألا تخجل أن يكون رسول الله في حملة خطيرة وأنت مع زوجك في عناق وقُبَل؟ إن عليك أن تذهب إلى المعركة أولاً، ثم ننظر بعد ذلك إلى ما يجب". ويُروَى أن الصحابي خرج من بيته في الحال والتوّ ليشد رحله ويلحق بالرسول مسرعًا، فأدركه على مسيرة ثلاثة أيام.

ولعل المنافقين قد ظنوا أن الرسول ﷺ سينقض على جيوش الشام لفوره، ودون أي تفكير، متأثرًا بإشاعاتهم التي لفّقوها ونشروها، ونسوا أنه كان حريصًا على تقديم المُثُل والسُنن التي سوف تقتدي بها الأجيال التالية من التابعين في كل عصر يأتي بعده. وحين اقترب الرسول ﷺ من الشام توقف، وأرسل رجاله إلى اتجاهات مختلفة لاستطلاع الأحوال والشئون. وعاد الرجال ليبلغوه بعدم وجود حشود في أي مكان. وقرر ﷺ العودة، ولكنه بقي أيامًا قليلة لإبرام اتفاقيات صلح مع بعض القبائل الحدودية.

استغرقت الرحلة ما يقرب من شهرين ونصف الشهر، ولم تقع حرب ولا حدث قتال. ولما رأى المنافقون أن خطتهم في إشعال نار

الحرب بين المسلمين وأهل الشام قد فشلت، وعاد الرسول ﷺ آمنًا وسالمًا، خافوا أن تكون مكيدتهم قد انكشفت، وخافوا من العقوبة التي كانوا قد استحقوها بفعلتهم. لكن ذلك لم يجعلهم يكفّون عن آثامهم وخططهم الدنيئة، فأعدّوا مجموعة من الرجال وسلّحوهم، وكمنوا للرسول على جانبي ممر ضيق لا يتسع إلا لراكب واحد في مكان لا يبعد كثيرًا عن المدينة. وجاء الوحي إلى الرسول ﷺ بالأمر حين اقترب الجيش من البقعة المذكورة، فأرسل أصحابه لاستطلاع الأمر. وشاهد الصحابة رجال الكمين مختفين على أهبة الاستعداد، وما إن رآهم رجال الكمين حتى هربوا مسرعين. وبلغ الخبر الرسول ﷺ غير أنه لم يقرر ملاحقتهم.

وبلغ الرسول ﷺ المدينة. وجاء المنافقون الذين تخلّفوا عن المعركة يقدموا الأعذار الواهية. وقَبِل الرسول ﷺ منهم، وأحس في نفس الوقت أن الوقت قد حان لفضح نفاقهم، وأمره الله أن يهدم مسجدهم الذي بنوه في قباء، والذي كانوا يستعملونه للقاء معًا في سرية لتدبير المكائد، و لم تتقرر لهم عقوبة أخرى سوى أن عليهم القيام بأداء صلواتهم مع سائر المسلمين.

ولدى عودته إلى المدينة، وجد الرسول ﷺ أن أهل الطائف قد خضعوا للإسلام. وتبعهم بقية قبائل العرب وافدين يعلنون الدخول في الإسلام. وفي وقت جدّ قصير كان علم الإسلام يرفرف على كل الجزيرة العربية.